وحى الهجرة فى نفسى

للاستاذ مصطفى صادق الرافعى

ان التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نوامس الوجود صورت فيها النفس الانسانية ، كيف اعتورت أغراضها ، وكيف مدت فى نسقها ، وكيف تغلغلت فى مسالكها ، وما تأتى لها لجرت به مجراها ، وما دفعها فانحدرت منه الى مقارها . فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه ، ولكنه أحوال من الوجود تعترضها فتغير عليك حسك بالهامها وأحلامها ، وتتناولها من ناحية فتتناولك من الأخرى ، فاذا الكلمة من ورائها معنى ، من ورائه طبيعـــة ، من ورائها سبب وحكمة ، واذا كل حادثة فيها انسانيتها وإلهيتها معاً ، واذا الوجود فى ذهنك كالساعة ترسم لك حد الثانية بخطرتين ، وحد الدقيقة من عدد محدود من الثوانى ، ثم حد الساعة إلى حد اليوم ؛ واذا البيان فى نفسك من كل هـذه الحواشى ، واذا التاريخ فيما تقرؤه مفنن فى ظاهره وباطنه يقع عليك من ألفاظه ومعانيه بظلال هى صلتك أنت أيها الحى الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل .

كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية فى كتاب أبى جعفر الطبرى لأكتب عنه كلمة فى « الرسالة » ، فلم أكن على الله — فى كتابه ولا فى حكاية ، بل فى عالم انبثق فى نفسى مخلوقا تاما بأهله وحوادث أهله ، وأسرار أهله وحوادثه جميعا ، كما يرى المحب حبيبه ، لا يكون الجميل فى محل الا امتلأ مكانه بعاشقه ، فهو مكان من النفس والدنيا ، لا من الدنيا وحدها ، وفيه الحياة كما هى فى الوجود بمظهر المادة . وكما هى فى الحب بمظهر الروح . وتلك حالة من القراءة بالروح والكتابة بالروح متى أنت صمت إليها رأيت فيها غير المعنى يخرج معنى ، ومن لا شىء تخلق أشياء ، لانك منها اتصلت بأسرار نفسك ، ومن نفسك اتصلت بأسرار فوقها ، فيصبح التاريخ معك فن الوجود الانسانى على الوجه الذى أفضت به الحكمة الى الحياة لتستمر بالنفس الانسانية ، لا فن علم الناس على الوجه الذى أفضت به الحوادث مما بين الحياة والموت .

***

نشأ النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة واستفى على رأس الاربعين من سنه ، وغبر ثلاث عشرة سنة يدعوا الى الله قبل أن يهاجر الى المدينة فلم يكن فى الاسلام أول بدأته إلا رجل وامرأة وغلام : أما الرجل فهو هو صلى الله عليه وسلم ، وأما المرأة فزوجه خديجة . وأما الغلام فعلى ابن عمه أبى طالب . ثم كان أول النمو فى الاسلام بحر وعبد : أما الحر فابو بكر . وأما العبد فبلال ، ثم انسق النمو قليلا قليلا ببطء الهموم فى سيرها ، وصبر الحر فى تجلده ، وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح ، ضيق لا يتسع ، جامد لا ينمو ؛ وكان النبى صلى الله عليه وسلم أخو الشمس ؛ يطلع كلاهما وحده كل يوم . حتى اذا كانت الهجرة من بعد ، فانتقل الرسول الى المدينة — بدأت الدنيا تتقلقل ، كأنما مر بقدمه على مركزها فضغطها فحركها ، وكانت خطواته فى هجرته تخطط فى الارض ، ومعانيها تخطط فى التاريخ ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب .

لقد كان فى مكة يعرض الاسلام على العرب كما يعرض الذهب على المتوحشين ، يرونه بريقا وشعاعا ، ثم لا قيمة له وما بهم حاجة اليه ، وهو حاجة بنى آدم إلا المتوحشين ، وكانوا فى المحادة والمخالفة الحمقاء ، والبلوغ بدعوته مبلغ الأوهام والأساطير — كما يكون المريض بذات صدره مع الذى يدعوه فى ليالى القر الى مداواة جسمه بأشعة الكواكب ؛ وكانت مكة هذه صخرا جرافيا يتحطم ولا يلين ، وكأن الشيطان نفسه وضع هـذا الصخر فى مجرى الزمن ليصد به التاريخ الاسلامى عن الدنيا وأهلها .

وأوذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذب وأهين ، ورجف به الوادى ، يخطوا فيه على زلازل تتقلب ، ونابذه قومه وتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضا عليه ، وانصفق عنه عامة الناس وتركوه إلا من حفظ الله منهم ، فأصيب كبيرا باليتم من قومه ، كما أصيب صغيراً باليتم من أبويه .

وكان لا يسمع بقادم يقدم من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه ، ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفى كما يشق البرق من سحابة على السماء ، ليس إلا أن يرى ثم لا شىء بعد أن يرى !

***

فهذا تاريخ ماقبل الهجرة فى جملة معناه ، غير أنى لم أقرأه تاريخاً ، بل قرأت فيه فصلا رائعا من حكمة الالهية ، وضعه الله

كالمقدمة لتاريخ الاسلام فى الأرض ، مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمر فى نسق الرواية الالهية ، المنطوية على رموزها وأسرارها ، وتظهر فيها رحمة الله تعمل بقسوة ، وحكمة الله تتجلى فى غموض ، فلو أنت حققت النظر لرأيت تاريخ الاسلام يتألق فى هذه الحقبة ، بحيث لاتقرؤه النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنها تصلى ، ولاتتدبره إلا خاضعة كأنها تتعبد .

بدأ الاسلام فى رجل وامرأة وغلام ، ثم زاد حرا وعبدا ، أليست هذه الخمس هى كل أطوار البشرية فى وجودها ، مخلوقة فى الانسانية والطبيعة ، ومصنوعة فى السياسة والاجتماع ؟ فهاهنا مطلع القصيدة ، وأول الرمز فى شعر التاريخ .

ولبث النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة لايبغيه قومه إلا شرا ، على أنه دائب يطلب ثم لايجد ، ويعرض ثم لايقبل منه ، ويخفق ثم لايعتريه اليأس ، ويجهد ثم لايتخونه الملل ، ويستمر ماضيا لايتحرف ، ومعتزما لايتحول ، أليست هذه هى أسمى معانى التربية الانسانية ، أظهرها الله كلها فى نبيه ، فعمل بها وثبت عليها ، وكانت ثلاث عشرة سنة فى هذا المعنى كعمر طفل ولد ونشا وأحكم تهذيبه بالحوادث حتى تسلمته الرجولة الكاملة بمعانيها ، من الطفولة الكاملة بوسائلها ؟ أفليس هذا فصلا فلسفيا دقيقا يعلم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم ، غناه فى قلبه ، وقوته فى إيمانه ، وموضعه فى الحياة موضع النافع قبل المنتفع ، والمصلح قبل المقلد . وفى نفسه من قوة الحياة مايموت به فى هذه النفس أكثر مافى الارض والناس من شهوات ومطامع ؟

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هى التى ألقيت فى منبع التاريخ الاسلامى ليعب منها تياره ، فتدفعه فى مجراه بين الأمم ، وتجعل من أخص الخصائص الاسلامية فى هذه الدنيا — الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم ، وعلى الحق وإن لم يتحقق ؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شحت عليها النفس ، واحتقار الضعف وإن حكم وتسلط ، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب ، وحمل الناس على محض الخير وإن ردوا بالشر ، والعمل للعمل وإن لم يأت بشىء ؛ والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة ، وبقاء الرجل رجلا وإن حطمه كل ما حوله ؟

ثم هى هى البراهين القائمة للدهر قيام المنارة فى الساحل — على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه روح وغاياتها المحتومة بالقدر ، لاجسم ووسائله المتغلبة بالطبيعة ، ولو كان رجلا ابتعثته نفسه لتمحل الحيل لسياسته ، ولأحدث طمعا من كل مطمع ، ولركد مع الحوادث وهب ، ولما استمر طوال هذه المدة لايتجه وهو فرد إلا اتجاه الانسانية كلها كأنما هو هى .

ولو هو كان رجل الملك أو رجل السياسة لاستقام والتوى ، ولأدرك ما يبتغى فى سنوات قليلة ، ولأوجد الحوادث يتعلق عليها ، ولما أفلت ما كان موجودا منه يتعلق به ، ولما انتزع نفسه من محله فى قومه وكان واسطة فيهم ، ولا ترك عوامل الزمن تبعده وهى كانت تدنيه . قالوا إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلمته قريش فقال له . يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولاتحملنى من الأمر مالا أطيق ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : ياعماه ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر صلى الله عليه وسلم فبكى ، يا دموع النبوة ! لقد أثبت ان النفس العظيمة لن تتعزى عن شىء منها بشىء من غيرها كائنا ماكان ، لا من ذهب الارض وفضتها ، ولا من ذهب السماء وفضتها ، إذا وضعت الشمس فى يد والقمر فى الأخرى .

وكل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل ذلك الزمن على أنه زمن نبى ، لا زمن ملك أو سياسى أو زعيم ؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الانسان الاجتماعى من جهة قوته ، بل يقين الانسان الالهى من جهة قلبه ؛ ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد المرضوعة التى تنشرها عدوى النفس للنفس . فما هو ذا لا يبلغ أهله فى ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تتوالد فى هذه الحقبة ؛ ودليل الانسانية على أنه وحى الله بايجاد الاخاء العالمى والوحدة الانسانية . أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحققه فى العالم ؟

ثلاث عشرة سنة ، كانت ثلاثة عشر دليلا تثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس رجل ملك ، ولا سياسة ، ولا زعامة ، ولو كان

واحداً من هؤلاء لأدرك فى قليل ؛ وليس مبتدع شريعة من نفسه ، وإلا لما غبر فى قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله ؛ وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس فى انتشارها ، ولوكانه لحملهم على محضها وممزوجها ؛ وليس رجلا متعلقا بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل ايمان يوم كفر يوم ؛ وليس مصلح عشيرة يهذب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة ؛ ولا رجل وطنه تكون غايته أن يشمخ فى أرضه شموخ جبل فيها ، دون أن يحاول ما بلغ اليه من إطلاله على الدنيا إطلال السماء على الارض ؛ ولا رجل حاضره إذ كان واثقا دائما أن معه الغد وآتيه ، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه ؛ ولا رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه ؛ ولارجل شخصيته يستهوى بها ويسحر ؛ ولارجل بطشه يغلب به ويتسلط ؛ ولارجل الأرض فى الأرض ، ولكن رجل السماء فى الأرض .

هذه هى حكمة الله فى تدبيره لنبيه قبل الهجرة ، قبض عنه أطراف الزمن ، وحصره من ثلاث عشرة سنة فى مثل سنة واحدة ، لا تصدر به الأمور مصادرها كى تثبت أنها لا تصدر به ؛ ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله . وكان صلى الله عليه وسلم على ذلك وهو فى حدود نفسه خير مكانه يتسع فى الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه ، وكأنما كانت شمس اليوم الذى سينتصر فيه ، قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة - مشرقة فى قلبه صلى الله عليه وسلم .

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه ، لأنه من سير الكون كله ؛ والسحابة لا يشعلون برقها بالمصابيح ، ومع النبى من مثل ذلك برهان الله على رسالته ، إلى أن نزل قوله تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » لحل الفصل ، وانطلقت الصاعقة ، وكانت الهجرة .

تلك هى المقدمة الالهية للتاريخ ، وكان طبيعيا أن يطرد التاريخ بعدها ، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك ؟

مصطفى صادق الرافعى

٥ — صور من التاريخ الاسلامى

الهجـــرة

للاستاذ عبد الحميد العبادى

كان من أثر الاتجاه المادى الحديث فى فهم حوادث التاريخ وتعليلها أن أصبح المؤرخون أشبه شىء بالفلاسفة الكليين القدماء الذين كانوا يجردون الانسان من عاطفة الخير ، ويعتقدون أنه أنانى بطبعه ، لا يصدر عنه الخير الا رئاء ونفاقا ، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث التاريخ يكذب هذه الدعوى وينقضها نقضا صريحا ، ولست أجد فى التاريخ الاسلامى انقض لتلك الدعوى وأشد تكذيبا من حديث الهجرة التى وقعت زمن النبوة ، سواء أكانت هجرة الحبشة أم الهجرة الى المدينة ، ففى كلتا الهجرتين تجد الاخلاص للعقيدة مجسما محسوسا ، والتنزه عن حطام الدنيا واضحا ملموسا . وإلى القارىء أسوق المقال الآتى توضيحاً لهاتين الهجرتين فى ضوء الحياة العامة التى ابتعثتهما وأدت اليهما

* * *

لقد حمل الاسلام من أول الأمر على ما كان لقريش من نظم بالية عتيقة حملة عنيفة لا مواربة فيها ولا هوادة . فكان محمد يقرع أسماع قومه بما يتنزل عليه من القرآن ناعيا عليهم وثنيتهم المنحطة ، ونظامهم الاجتماعى الذى فرقهم أغنياء وفقراء وسادة وعبيداً ، مهجنا تكثرهم بالاحساب والانساب ، مقبحا طرقهم الملتوية فى المعاملات من تطفيف الكيل والميزان وأكل أموال الناس بالباطل . محذراً لهم ان هم أصروا على عتوهم واستكبارهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به اليها الرسل من أسباب الهداية والاصلاح

لم يجب هذه الدعوة التى تكفلت بخيرى الدنيا والآخرة إلا فريق قليل العدد وسيط المكانة فى المجتمع القرشى . أما الملأ من قريش فرأوها دعوة صريحة الى الفوضى وقلب الاوضاع . ورأوا فى محمد ثائراً يريد هدم النظم التى درجت عليها الجمهورية